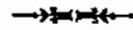




دراسات في الفن

## العيد فن الطفولة

للأستاذ عزيز أحمد فهمي



وهل أنا وحدي التي كنت هكذا؟ لا يمكن... وإنما كان مثلي كل الأطفال فهذا هو طبع الطفولة... لا تريد أن تعرف من الحياة إلا المرح والبهجة والفرح والعيد... فهل لم تكن تنفص على الحياة أيام؟ كانت آلام ولكن كانت معها دموع تسلسها فتنتق الروح منها ولا تعود تذكرها

ثم تعلمت الجلد . والجلد صبر على الألم ، والألم كدر... فتراكت في الناس أ كدار فوق أ كدار لعلها اليوم من كثرتها لم تمد تصلح علامة لتميز الأيام من الأيام... ولكنها صلحت في الماضي كثيراً قليلاً... فعرفت بها في البدء أن بين العيد والعيد أياماً لا زينة فيها ولا كملك ولا ضحية ، ثم عرفت بذلك أن هناك أياماً للمدرسة ، وأنت في المدرسة حساباً وعقاباً ، ثم عرفت... ثم عرفت... حتى عرفت أن من الأعياد ما يقضى بين الجدران ووراء القضبان وكنت قد مررت قبل ذلك بسجن في عيد ولم أرض أن أفكر أن فيه ناساً يقضون العيد ، ولم أطلب حتى لنفسى الرحمة من محنة كهذه المحنة .

كانت غفلة . ولكنها كانت سعادة . ولكنها كانت غفلة فأى شيء نرجوك يارب والسعادة تبدو كأنها من لوازم الغفلة . وأنت تكره الناقلين ! نسألك العون على صرارة الغفلة . بل إنا نسألك الهدى إلى حلاوتها

فكيف نكون إذا اهتدينا ؟

فلتر إلى المهتمين

كان محمد يلعب مع سبطيه ، وكان المسيح يدعو إلى ملكوت الأطفال ، وكان في كل فنان من علامات الطفولة وأماراتها ما يشهد بأن في الطفولة ميزة لو أن الناس يحفظون بها ، ولا يجاهدونها بالستر والكبت والخفق ، ولو أنهم يتركونها تنمو في حياتهم وتردهم كما سهر أديانهم وتردهم ، لكبروا وكبرت

إلى الذين أسعدوني في أعيادي والذين ودوا ذلك ، وإلى الذين أسعدوا مني فيها فطاب لهم ذلك كما طاب لي ، وإلى الذين وددت لو أسعدتهم بعد ذلك... حقق الله رجائي...

إلى أيام البهجة والصدق . إلى أيام الغفلة والحب إلى رصيف الإسكندرية ورسافتها

إلى كل ما كان... تحية اللوعة والوفاء... ياليت ما كان دام لولا أن من عاش رأى . ومن يدرى فربما ود من رأى لو أنه لم ير . من يدرى ؟ لطفك اللهم !

كان العيد عيداً

كنا نتهياً لفرسته من رمضان أو شعبان فكانت أيامها أعياداً . وكنا نحلم بأيامه فكانت أحلامنا أعياداً ، وكنا نتحدث بأحلامنا فكانت أحاديثنا أعياداً . وكان العيد يجيء ، وكنا نستغرق فيه ، وكان العيد يمر ، وكنا نذكره فكانت ذكراه أعياداً .

وكانت نشوة العيد تأخذ الروح من العيد إلى العيد حتى لم تكن نحسب أن بين العيد والعيد أياماً ليست أعياداً

... حتى جاء عام فطنت فيه إلى أن بين عيد الفطر وعيد الأضحى شهرين وبعض شهر ، وأنها ليسا أسبوعاً متلاحقاً : الثلاثة الأيام الأولى منه عيد صغير ، والأربعة الأخر عيد كبير . فكيف فطنت إلى هذا؟ وكيف عرفت أنها حقيقة جديدة لولا أنني لم أكن أراها قبل ذلك ، وأني كنت لا أميز الأيام من الأيام؟

الأكاذيب ، فهو لا يحظى من سعادة الطفولة إلا بمقدار ما خلصت نفسه في حياته من الشر ودواعيه . فإذا كان قد عاش على الصدق والفرح فهو في طفولته الثانية كما كان في طفولته الأولى تملأ نفسه بهجة ولا تفزعها الوسوس ، وإذا كان قد عاش على الفس والخلل فإيا ويله من طفولته الثانية : وإيا أشد الذي يلقاه فيها من الصراع بين الصدق الذي طالت غمرته والذي يريد أن يفيض ، وبين الكذب الذي طال تشبته بنفسه ثم ضعف فهو لا يقوى على البقاء ... ومع هذا فإنه يأبي أن يزول في هدوء

والآن ... هل صحيح أن الطفولة تمتاز بالصدق ؟ وهل صحيح أن الصدق مبعث الفن والفرح معاً ؟

أما أن الطفولة تمتاز بالصدق فإنه من غير شك صحيح . لأننا إذا تتبعنا أكاذيب الناس رأيناها تنقسم إلى قسمين : قسم يراد به تحصيل نفع أو دفع ضرر ، وقسم آخر يراد به التسلية والترويح عن النفس ، والقسم الثاني يدخل من باب الفن لأنه تخيل يستكمل به صاحبه نقصاً يحسه ، وهذا لا يؤدي صاحبه ولا غيره إن لم ينفع البشرية وبخضها على استكمال النقص الذي رآه صاحبه . وأما القسم الأول الذي يراد به تحصيل النفع أو دفع الضرر فهو من مستلزمات التكليف والحساب ، فلو لم يشعر صاحبه بأنه مطالب بأداء عمل من الأعمال وأنه قاصر عن أدائه لما لجأ إلى الكذب يستر به عجزه ، ويعوه به على صاحب الحق مبدعياً أنه قام بما كلف به ، وهو يريد من وراء ذلك أن يتنجس من حساب صاحب الحق ، وهذا شعور يناق طبيعة الطفولة التي حررتها الأدبان والقوانين الطبيعية والقوانين الموضوعية من التكليف والحساب ، لأنها فعلاً لا تطبق التكليف ولا الحساب

فالطفولة إذن صريحة صادقة بطبيعتها ، والأطفال إذن يتعلمون من الكبار الكذب فيما يتعلمون من ألوان الكفاح والصراع في سبيل الرزق وغير الرزق من مطالب الإنسانية الجوفاء ، والكذب الذي يتعلمه الأطفال له ثلاث شعب : هذه الشعبة الأولى التي رأيناها تأخذ تمبيرهم عن أنفسهم وتصبغه بصبغة الفس ، والشعبة الثانية تلك التي تمنعهم من الاستجابة إلى إحاسهم الصادق فتقدم بهم عما يحبون ، وتلقى بهم إلى حيث يكرهون متبئين في هذا اعتبارات ليست من الحق المطلق في شيء وإنما صنتها هذه الحياة

هذه الميزة معهم واستطاعت أن تطبع حياتهم بذلك الطابع الذي تطبع به حياة الأطفال ، وهو طابع السعادة ... ولن تكون ثم غفلة ما دام العقل ينضج شيئاً فشيئاً ، وما دامت هذه الميزة تهديه في نضجه فتحميه من الاتجاه إلى الخطيئة وتأخذه بالتصويب الحق الذي تأخذ به أهل الفن المهتمين ... وإذا كانت الإنسانية قد غيرت في الماضي أهل الفن هؤلاء بشذوذهم عن أوضاع الناس المألوفة للزومهم هذه الطفولة والتزامهم منهجها فإنها إذا آمنت بها وانتهجتها هي أيضاً ستعرف أن محمداً لم يكن يبعث بروقه الغالي عند ما كان يلعب مع سبطيه ، وأن المسيح لم يكن يهرف حينما كان يلفت أنظار الناس إلى الأطفال ويؤكد لهم أنهم أقرب إلى الله والحق من الكبار وأشد به صلة ، وأن موسى لم يكن مخطئاً حينما استنجد الذي من قومه وكان عدوه يضربه فلكم عدوه فقتله ، فليس هذا إلا ما يفعله الطفل أو البدو وهم أطفال الشعوب بين حضارات البشر المكتملة ، وقد نجاء الله بعدها من الغم فلم تمد نفسه تمنص عليه حياته بالحساب والتأنيب والتصنيف ...

فأى ميزة هي هذه التي في الأطفال تسددهم وتبرئهم وتستنبت الفن في نفوسهم فإذا كبروا اجتروها واستأصلوا الفن معها ، وصاروا بمد ذلك هكذا كما نراهم ...

إنها لا شك الميزة التي تبتث الفن ، إنها الصدق في الحس ، والصدق في الاستجابة له ، والصدق في التمييز عنه ... وهذا للصدق إذا صين في النفوس كبر الأطفال وهم لا يزالون أطفالاً ، وأقبلوا على الحياة كما يقبل عليها الأطفال مطمئنين مبتهجين ، ولم يكن لهم شغل في الدنيا إلا اللعب والفناء والطرب والبحث عن السعادة . فتصبح أيامهم عندئذ أعياداً ... كما كان آدم وحواء في الجنة : لا تكليف ولا حساب ، لأن التكليف والحساب لم يجبا ولم يلزما إلا فيما جد على الإنسان من حياة بمد الجنة ، وفيما يجد على الفرد من حياة بمد الطفولة ... تمهيداً لعودة الإنسان إلى الجنة ، ورتيباً عليه وصوناً حتى يعود الفرد إلى طفولته الثانية وهي الشيخوخة ، وفيها تضعف عند الإنسان قوة الكبت التي يضغط بها الصدق في نفسه فيطفو الصدق من جديد ولكنه يسرى عندئذ في أعصاب منهكة تراكت فيها الأكاذيب وآثار

أحكامنا على الناس فنصدرها أحكاماً اختلطت «حيثياتها» فبعضها من القانون الطبيعي الصحيح وأغلبها من قوانين أخرى وضعناها نحن ، ووضعا الزمان ، ووضعا المكان ، وما أكثر هذه عند الكذابين والنشاشين ، وما أشد تأثيرها في أحكامهم ، وما أشد ما يبتعدون بها عن الحق في هذه الأحكام فيغشون أنفسهم كما يغشون الناس

هذا من ناحية الإحساس وصدقه

والأصل في الإنسان أيضاً أن يستجيب لإحساسه هذا الصادق متى تمكن من نفسه ، فإذا أحب اندفع إلى ما يجب ، وإذا كره انقبض عما يكره ، ونحن إذا تأملنا الأطفال رأيناهم يستجيبون إلى هذا القانون الطبيعي أكثر مما تستجيب له نحن الكبار ، ومهما أخذنا على الأطفال الأناية في مسلكتهم هذا فإننا لا نستطيع أن نتهمهم فيه بالخديعة والنش ، ثم إن هذه الأناية نفسها التي نأخذها على الأطفال تنفجها الحياة الطبيعية شيئاً فشيئاً ، وتمحوها شيئاً فشيئاً ، فالطفل كلما كبر على سجيته أدرك العلاقات الحقيقية - لا الزائفة - التي تربطه بالمجتمع الذي يحيط به ، ورأى نفسه مطالباً أمام نفسه - لا أمام غريب عنه صاحب حق مفروض وتكليف مصنوع وحساب مسلط - بأن يراعى حق هذا المجتمع عليه كي يراعى المجتمع أيضاً حقه عليه ... وهذا شيء ملحوظ في مجتمعات الأطفال ، التي تتألب بسرعة على الطفل الطاغية الذي يميل إلى قهرها وفرض سلطانه عليها زوراً ، وهو ما تخرج عنه مجتمعات الكبار وتختار وتختبئ وتمتد في القيام به وهذا من ناحية الاستجابة للإحساس الصادق . ويحيى أخيراً التعبير الصادق عن هذا الإحساس الصادق بهذه الاستجابة الصادقة ، وأظن أنه لا أحد من القراء يختلف معي في أن الأطفال يمارسون هذا التعبير على طول الخط ، وأنهم لا يتخرجون من مواجهة صاحب العيب يذكر عيبه أمام عينيه وفي مواجهته لا يخشون اللوم ، ولا يحسبون حساباً لهذه الجاملات المقعدة التي يحسب الكبار حسابها والتي تحملهم على ابتلاع الميوب ... ثم ابتلاع الحامض أيضاً ... ثم التحكم في تقرير الحكم على الأشياء وفق ما يمرض لهم بناء على هذا الحكم من نفع يكسبونه ، أو ضرر يمنعونه ...

الأطفال إذن هم الذين يحسون بالناس - على الأقل - إحساساً

الملتفة التي اختلفت المذاهب ، والمواطن ، والملاقات البشرية المتناقضة المضطربة القائمة على النفع العاجل والزيف . ثم هذه الشعبية الثالثة تقيم بينهم وبين الحق سداً متيناً وتغلف أنفسهم عنه ، فتسمى أبصارهم ، ولا يمودون يرون الشيء على حقه ، وإنما يرونه حسبما تستعجب أنفسهم الكاذبة ، وشتان ما بين الحق وبين الذي يشبهه الكاذبون

ولكي يدرك القارئ مدى الحق فيما أقول أدعوه إلى أن يتصور صاحباً له ممن عرف فيهم الميل إلى الكذب وإدماحه ، والتعلق بالنش والإسراف فيه ، فإذا ما استحضره في ذهنه فإني أطلب منه أن يتابع حياته وأن يرى كم يقع هذا الكذاب النشاش في أحاييل الكذابين والنشاشين ؟

أما أنا فأعرف أمثلة عديدة لهؤلاء الساكنين ، وأعرف أنهم أسهل فريسة للكذب والنش مع تفوقهم في تدبير الكذب ، وتمكنهم من حيل الخديعة ... فإذا اتفق صاحب القارئ مع أصحابي في هذا جاز لنا أن نعتبرها قاعدة مطردة ، وحق علينا أن نستقصى أسبابها . ولن يجهدنا السعي إلى أسبابها كثيراً أو قليلاً لأن ذكرها تقدم في الذي انبسط أمامنا من الحديث عن شعب الكذب . فالأصل في الإنسان أن يستطيع التمييز بين ما هو خير وبين ما هو شر ، وإذا جاز للإنسان أن يميز بين الخير والشر فيما اختلف عن نوعه من مخلوقات والموجودات فإنه لا يمكن أن يلم به هذا العجز في صدد الكائنات البشرية التي هي من نوعه ومن طبيعته ، فهو نفس أو روح ، وبقية الناس نفوس أو أرواح ، والتعارف بين النفوس والأرواح لا يحتاج إلى تعليم ولا تدريب ، وإنما هو شيء يحدث بالسليقة والطبع كما يعرف الزيت الزيت فيسقى إليه ويتخرج به مهما فرق الماء بينهما . ونحن إذا تأملنا الأطفال عند ما يجمعهم الظروف لأول مرة بإنسان نعرف نحن بالتجربة أنه خير ، أو بإنسان نعرف نحن بالتجربة أنه شرير وكان مظهر كل من هذين يشبه إلى حد كبير أو صغير مظهر الآخر ... رأينا الأطفال يتدفقون إلى الذي نعرفه خيراً ، وينفرون من الذي نعرفه شراً ، وليس هذا إلا لأن الأطفال أطلقوا إحساسهم صادقاً يميزون به وحدة النفوس والأرواح بعضها من بعض ، ولا يقيمون بعد ذلك وزناً للاعتبارات الأخرى التي نقيم لها نحن الأوزان ، والتي تتأثر بها قليلاً أو كثيراً في إصدار